6

المثقف العربي والولاء الفلسطيني

أ.د. عبد النبي اصطيف

ربما كان من الحكمة أن يبدأ المرء بتفحص مدقق لمصطلحات عنوانه، فيتوقف عند مصطلح "المثقف العربي" بغرض إبراز الجانب العقلي الذي ينطوي عليه بوصف المثقف شخصاً يتمتع بقابلية التفكير بذكاء من جهة، وقابلية فهم الأفكار والموضوعات الصعبة والمعقدة من جهة أخرى؛ ويشير على نحو موجز إلى الإسهامات النظرية المتصلة بمفهوم المثقف (غرامشي، مشيل فوكوه، إدوارد سعيد وغيرهم).

مصطلح المثقف العربي:

مصطلح "المثقف" في الثقافة العربية الحديثة مصطلح مولّد، سكّه العرب في القرن الماضي ــ القرن العشرين ــ ترجمة لمصطلح "intellectual الإنكليزي، ومصطلح " intellectuel" الفرنسي، وكان الأولى بهم ترجمته بـ "المفكّر"، ولكنهم آثروا عليها كلمة "المثقف" تمييزاً لها عن مصطلح "thinker".

وكلمة "المثقف" أو الـ "intellectual" مصطلح حديث العهد في الغرب يعود إلى القرن العشرين في أصوله، غير أنه استعمل بمفعول رجعي في الإشارة إلى شخصيات في

التاريخ الفكري للغرب ينطبق عليها المصطلح، فضلاً عن استعماله في سياقات معاصرة.

وهو مشتق من الاسم "intellect" الذي يعني قابلية التفكير على نحو ذكي، وقابلية فهم الأفكار والموضوعات الصعبة والمعقدة، والصفة منه هي intellectual أي ذاك الذي يتمتع بهذه القابلية. والاسم " intellect" يشير كذلك إلى الفكر والعقل من جهة، والذكاء والفطنة من جهة أخرى، ويطلق على الألمعي أيضاً.

وثمة إسهامات عديدة تناولت نظرية المثقفين وأدوارهم المتغيرة في المجتمعات الإنسانية ربما كان من أهمها إسهام غرامشي المفكر الإيطالي الماركسي المعروف الذي ميّز بين المثقف التقليدي Traditional Intellectual والمثقف العضوي Organic Intellectual الذي ينافح عن مصالح طبقة محددة؛ وإسهام ميشيل فوكوه المفكر الفرنسي الذي حدّد المثقف بالمهنة، وشروط الحياة والعمل فضلاً عن علاقته بـ "سياسة الحقيقة" "politic of truth".

وفضلاً عن نزعة المركزية الأوروبية Euro-centrism التي تحكم الإسهامين السابقين وإسهامات أخرى، تعاني هذه الإسهامات مشكلتين أساسيتين:

أولهما: مشكلة البعد النقدي، أو المسافة النقدية التي تكفل سلامة مواقف المثقف وموضوعيتها تجاه القضايا والمسائل والموضوعات موضع النظر.

وثانيهما: مشكلة تمثيل المثقف للمجتمع أو الفئة أو الطبقة أو الشريحة أو المؤسسة التي يتحدث المثقف باسمها.

غرامشي

ولذلك فإن المرء ربما مال في هذا السياق إلى تبني مفهوم إدوارد سعيد للمثقف عندما وصفه فكتب في تمثيلات المثقف، وكان في الحقيقة يتحدث بالأحرى عن نفسه بشكل غير مباشر:

"المثقف فرد ذو دور عام محدد في المجتمع لا يمكن أن يُرَدَّ ببساطة إلى دور مهني، أو إلى دور عضو كفء من طبقة يمضي في أداء عمله. فالحقيقة المركزية، بالنسبة لي ــ كما أعتقد هي أن المثقف مُنحَ مملكة تمثيل رسالة، أو فكرة، أو موقف، أو فلسفة، أو رأي، وتجسيدها والإفصاح عنها لجمهور ما، وكذلك من أجله، ولهذا الدور حدّد، ولا يمكن أداؤه دون الإحساس بكون المرء شخصاً ما، موقعه أن يثير علناً قضايا محرجة، وأن يواجه محرجة، وأن يواجه سنّة وعقيدة (لا أن ينتجها)، وبكونه شخصاً ما لا يمكن للحكومات أو الشركات أن تستوعبه بسهولة، وبكون مبرر وجوده تمثيل كل أولئك الناس وتلك القضايا التي تنسى أو تخفى برتابة.

فوكو

ويقوم المثقف بهذا الدور على أساس مبادئ عمومية: أن لجميع الكائنات البشرية الحق في توقع معايير سلوكية لائقة من القوى الدنيوية أو الأمم تجاه الحرية والعدالة، وأن الانتهاكات المتعمدة أو غير المقصودة لهذه المعايير يجب أن يشهد ضدها وتحارب بشجاعة (1).

وبعد هذا الحديث البرقي عن مصطلح المثقف يمكن أن ينتقل المرء إلى تفحص موضوع ولاء المثقف العربي أو مصطلح "فلسطين" فيشير إلى ما ينطوي عليه من حقائق وتضمنات، ويتوقف بشكل خاص عند تنامي الوعي بالهوية الفلسطينية وما رافقه من إشكالات وتكافؤ ضدّيّ ولا سيما لدى الآخر، الداخلي/العربي.

موضوع الولاء ـ فلسطين:

ينبغي للمرء عند الحديث عن فلسطين التي هي موضوع ولاء المثقف العربي أن يذكّر بمجموعة من الحقائق:

أولها: أن هذه الرقعة منطقة لم تأخذ هويتها القطرية إلا حديثاً، وكانت باستمرار، وحتى عهد قريب، جزءاً لا يتجزأ من بلاد الشام؛

ثانيها: أن هذا الاقتطاع عن الأرض ـ الأم تمّ على أيدٍ خارجية ولاعتبارات خارجية ومصالح خارجية لا تمت بأي صلة إلى الطبيعة الأصلية لها أو إلى أهلها الأصليين؛

ثالثها: أن هذا الاقتطاع تحقق في ظروف وشروط تاريخية غاية في التعقيد، وهي ظروف وشروط أملتها، أساساً، أوضاع عالمية لم يكن للعرب إلا دور محدد في خلقها أو تطوّرها أو مآلها؛

رابعها: أنها غدت، ولا زالت، موضع نزاع بين قوة غاشمة مسلّحة بأيديولوجية عنصرية، وفكر متزمت، وتقدم علمي وتقني متميّز، ودعم حيوي من قوى العالم الأكثر نفوذاً وجبروتاً وتقدّماً تقنياً. وقوة مغلوبة على أمرها مسلّحة بإيمان مطلق بحقها، وبصلابة صقلتها وقائع المواجهات اليومية مع القوة الغاشمة، وبأمة مفككة مجزّأة ضعيفة، تدعم بالقلب، أكثر ممّا تساند بالفعل، وكثيراً ما تلقي بظلال أوضاعها على هذه القوة المغلوبة؛

وخامسها: أن هذا النزاع متداخل إلى حدّ مروّع بالأوضاع العالمية، وأنه، بالتالي، لا يمكن أن يحسم محلياً أو إقليمياً؛

ادوارد سعيد

وسادسها: أن هذه الرقعة بكل ما فيها، أرضاً وتاريخاً وتراثاً وحضارة بل وحياة إنسانية، أصبحت عرضة للقضم

والابتلاع من القوة المزدرعة فيها والتي تحاول أن تغيّر كل شيء فيها وتطبعه بطابعها المغاير تماماً للطبيعة الأصلية لهذه الرقعة.

إن الوعي بهوية هذه الرقعة وهوية أهلها من العرب تنامى في ظل مواجهة شاملة ومعقدة وعلى جانب ملحوظ من المفارقات مع الآخر ـ الخارجي المختلف الذي يسعى لمحو معالمها وتبديد خصائصها وطمس قسماتها والقضاء على أهلها الأصليين أو "تطهيرها

منهم" لتبقى له. والآخر ـ الداخلي المؤتلف الذي يسعى لإبراز هذه الهوية وتعميق ملامحها للحفاظ على حق أهلها فيما استلب منهم بالقوة الغاشمة، وهو في أعماقه يشعر بأنه يصطنع ذلك اصطناعاً فرضته عليه الظروف، بل إنه كثيراً ما يمارس دور ولي الأمر العارف الخبير بمصالح المنتمين إليها وواقعهم ومستقبلهم أكثر منهم، ولربما يقوده ذلك إلى مواقف من المواجهة والخلاف لا يريدها ولا يريدونها هم أنفسهم. والمهم، في نهاية المطاف، أننا أمام هوية مصدرها الانتماء إلى هذه الرقعة، قلباً وعقلاً ومصيراً مرهوناً بمستقبل مجهول في الحدود الدنيا، وعضّاً بالنواجذ ومعاناة يومية، وتضحية مستمرة، ودماء مراقة، وتحدّياً أسطورياً، ومجابهة غير متكافئة في الحدود العليا.

وفي محاولة لمناقشة طبيعة العلاقة بين المثقف العربي وموضوع ولائه يمكن أن يؤكد المرء أن مفهوم المثقف وبخاصة ما يتضمنه من عقلانية يفترض بها أن تحكم رؤيته للعالم، ينطوي على "ولاء" متأصل لفلسطين، ولكنه بسبب جملة من العوامل الذاتية والموضوعية لم يستطع المثقف العربي حامل هذا الوصف أن ينتقل بهذا الولاء من طور الوجود بالقوة إلى طور الوجود بالفعل من خلال تجسيده في صور تعزز صمود أهلنا في

الأرض المحتلة من جهة، وتسهم على نحو فعال وإيجابي في تحقيق أهداف النضال الوطني الفلسطيني القريبة والبعيدة من جهة أخرى.

لقد استطاع مثقفو جنوبي إفريقية، ومثقفو العالم الموالون لقضية كفاح شعبها، أن يعززوا كفاح هذا الشعب بخلق رأي عام عالمي أسهم في تعبئة قوى العالم المعنوية والأخلاقية والإعلامية ضد النظام العنصري، وفي حفز القوى المؤيدة للتحرر الوطني على الدعوة إلى تطبيع الأوضاع في جنوبي إفريقية بإعادة الأمور إلى نصابها، والحقوق إلى أصحابها. وهو بالضبط ما فشل فيه المثقف العربي الذي قصّر، بسبب من تعطيله للمدخل العقلي في مقاربة ولائه لفلسطين، في أداء واجبه تجاهها، حتى إنه أحياناً عجز عن الدفاع عن الكفاح الفلسطيني (الذي يقوم على رفض الاحتلال والتمسك بالحرية والكرامة والأرض) أمام الهجمة الشرسة للسياسة الأمريكية والصهيونية المدعومة بالإعلام اليميني المؤيد للكيان الصهيوني، والتي سعت ونجحت، إلى حد ما، بربطه بالإرهاب العالمي الذي ينبغي احتواؤه بشتى السبل، والذي ينبغي للعالم كله أن يقف ضده، حتى إن بعض المثقفين باتوا يشككون بوسائل هذا الكفاح (العمليات الاستشهادية بشكل خاص).

صحيح أن ما سيحدّد مستقبل الكفاح الفلسطيني هو قدرة أهلنا في الأرض المحتلة على الصمود والتمسك بالأرض، ولكن المثقف العربي يستطيع، إذا ما تمسك بالموقف العقلاني في تدبّر ولائه لفلسطين، أن يعزز هذا الكفاح، ويسهم على نحو من الأنحاء في تعبئة الرأي العام العالمي وشحنه بالحس الأخلاقي ضد النظام العنصري الصهيوني حتى يتمكن الشعب الفلسطيني من إقامة دولته المستقلة ذات السيادة على كامل التراب الفلسطيني أو على جزء منه، ويسترد فلسطينيو الشتات حقهم في العودة إلى هذا التراب الذي جاهدوا طوال القرن الماضي من أجل الحفاظ على كل ذرة فيه وضحوا بالكثير من أجله.

لقد آن للمثقف العربي أن يتبين أن أشقاءنا الفلسطينيين في وقفتهم الأسطورية أمام إرهاب الدولة الذي يمارسه الكيان الصهيوني إنما يقفون في الخندق الأول دفاعاً عن الأمة العربية كلها، بل وعن الإنسانية التي لم تعد تطيق أيديولوجية الاستيطان والتطهير العرقي والفصل العنصري، وأن وقوفه إلى جانب هؤلاء الأبطال الصامدين إنما هو دفاع عن النفس والهوية في زمن الإمبراطورية الأمريكية التي انتشت بغطرسة القوة فلم تعد ترى إلا ما ترغب فيه وتريده، بل إنها لتسعى جاهدة إلى خلق ما تقرره وتريده مهما كانت فداحة الثمن الإنساني الذي يدفعه أهلنا في فلسطين والعراق وغيرهم من الذين ينتظرون دورهم في قائمة "الأهداف الأمريكية".

انظر:

(1) Edward W. Said,
Representations of the Intellectuals
(Vintage Books, New York, 1996), pp. 11 -2.

اتحاد الكتاب العرب

الموقف الأدبي

مجلة أدبية شهرية يصدرها اتحاد الكتّاب العرب في سورية

العدد
421
السنة السادسة و الثلاثون
أيار
2006

توملس مان
جبل السحر
212

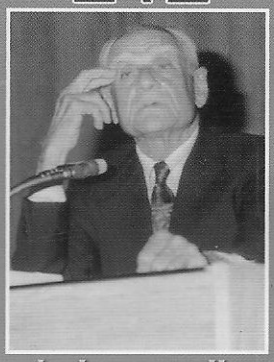

البرتو مورافيا
قصة جديدة
136

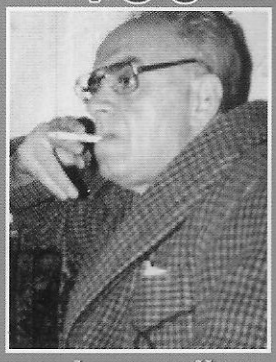

عبد المعين ملوحي
حوار آخير ..
208

المثقف
و الولاء
6

شوق
آخر ..
104

بوشكين
الروح
العرفانية
180